سينمائيا ؟

انه جائع متعطش الى رؤى جديدة ، فلماذا لا نسد الفراغ الصارخ بخلق حركة سينمائية مرتبطة بالثورة الفلسطينية ، وبجيل الثورة في العالم كله؟ لماذا لا نفعل ذلك ؟ المنتجون العرب يقولون لنا بأن الجماهير التي بامكانها مؤازرة اية حركة سينمائية هادفة في العالم العربي هي غير متوفرة ، مع الاسف الشديد . ونعات هؤلاء السادة الذين شوهوا سمعة المقاومة بافلامهم المخجلة ، بان الجمهور المتذوق الذي يميز بين الصالح والطالح لا يولد من لا شيء ، وانما يربى ، ويتعهد بالعناية الفائقة منذ نشأته . ثم يقول لنا هؤلاء بأن المشاهد العربي مصاب بازدواج الشخصية، فهو مثلا يطالب بالاعمال الفنية الهادفة ، بينما هو شخصيا يشجع الانتاج المسلي ذا الطابع الضحل ، وغرب عن بالهم بأن **العمل الفني الجيد هو المسلي والهادف في آن واحد** . واذكر بهذه المناسبة النادرة التالية التي اوردها ناقد مسرحي المانى معروف ، في الجريدة التي يكتب بها ، بأن مديرة منزله حريصة على زيارة دور المسرح بانتظام ، باعتبار ان زيارة المسرح في المانيا الغربية هي بمثابة واجب ثقافي لا مفر منه بالنسبة للطبقة البورجوازية . وكان يسألها دائما اثر عودتها من « سهرتها الثقافية » عن رأيها في التمثيلية التي شاهدتها . فتعلم بحكم الخبرة انه اذا اخبرته بان المسرحية كانت تافهة وصبيانية ، فمعنى ذلك انها قضت وقتا ممتعا و« انبسطت » كثيرا ، اما اذا اخبرته بان المسرحية كانت جيدة جدا ومفيدة، فمعنى ذلك انها ظلت تتثاءب وتقاوم النعاس طوال العرض ، لان المسرحية كانت ثقيلة الدم وشديدة الجفاف ، بالنسبة لها . وهكذا هي معظم اعمالنا الفنية او الادبية « الهادفة » ، فهي مملة وجامدة وعسيرة على الفهم . ولعل ذلك هو بالضبط السبب الرئيسي الذي يجعل صاحب المال يتردد في وضع ماله في مشروع سينمائي ملتزم بالقضية، على اساس ان فيمثل هذا المشروع الفني الهادف ، خراب البيوت والفشل الذريع . اذن المطلوب اتباع تخطيط جديد في سبيل خلق حركة سينمائية ملتزمة ، لا تعرض المشرفين عليها الى الخسارة المالية المحققة . ولكن كيف ؟

صاحب هذه المرامعة ينتمي الى جيل نشأ مع النكبة . عندما ضاعت فلسطين عام ٤٨ ، كان تلميذا في المدرسة ، وكانت انباء الحرب التي انتهت بالخيبة اول عهده بقراءة الصحف . وفي الخمسينات ، كان طالبا في الجامعة ، يقرأ الكتب عن القضية ، ويشترك بالمظاهرات ، ويحلم بفلسطين سينمائيا . ومع ان الجيل الذي ولد في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، عاصر في صباه ثورة الـ ٣٦ ، وشارك وهو بمرحلة الرجولة في حرب ٤٨ ، وقد يكون اليوم بعض قادة الثورة منه ، الا انه على الصعيد السينمائي لم يحقق الكثير . اما الجيل الذي شهد النور لاول مرة اثناء او بعد الحرب العالمية الثانية والذي يسفح ابناؤه دماءهم كل يوم على جبهة الثورة ، فهو اصغر سنا واقل خبرة من ان يلعب دورا قياديا في الحركة السينمائية المقترحة قبل العقد التاسع من القرن الحالي . بقي الجيل الذي ينتمي اليه كاتب هذه السطور ، والذي واكب نضوجه الفكري ، بلوغ السينما في العالم سن الرشد ، بعد ان قطع الاثنان مرحلة المراهقة سوية . هذا الجيل وصل الى مشارف الفن السابع عبر الكلمة المكتوبة ، بعد ان تجاوزت تطلعاته القصة والشعر والتاريخ والرسم والنحت والموسيقى والمسرح ، من اجل الوصول الى الفن النهائي الشامل The ultimate art الذي يجمع في كيانه خواص كل الفنون . لماذا هذه الرحلة؟ لان الارتباط والالتزام بالقضية الفلسطينية، بل الهوس الصوفي والسعي وراء الجزمية النهائية، يحتم على الفنان والاديب السفر عبر قناطر الفنون الى سابعها ، **فالسينما هي قبل كل شيء آخر ، اعظم واسطة للدعاية والاعلام في التاريخ** . فالشخص الذي يضع اصبعه على زر الكاميرا كي يدور الفيلم بداخلها ويسجل ، هو في نفس خطورة الرجل الذي يضع اصبعه على زناد المسدس ويتأهب لاطلاق النار . نعم ، السينما (وعندما اقول السينما ، اعني كذلك التلفزيون) هي الديناميت لا شك . فلنكن نحن « المفلين » اذن ، ولنحمل علب الكبريت في جيوبنا ، اذ ما فائدة الديناميت اذا لم ينفجر ؟

دفاعا عن السينما الجديدة التي غزت كل دار تقريبا في امريكا ، واصبحت أداة خلق لكل فرد ، قال أحدهم : «على الناس ان يعدوا اعلامهم بأنفسهم» وهذا هو بالذات ما يجب ان نفعله ، بعد ان قدمت لنا التكنولوجيا الحديثة كل التسهيلات ، وبعد ان جهزت لنا الثورة الفلسطينية المناخ المطلوب ، وخلقت لنا الجمهور .

سبق ان قلنا : المطلوب اتباع تخطيط جديد في سبيل خلق حركة سينمائية ملتزمة ، لا تعرض المشرفين